

الفصل الأول

مهد الحضارة

بزغ فجر الحضارة الإنسانية من الشرق الأدنى منذ أربعة آلاف وخمسمائة سنة قبل الميلاد ، واستقر ضحها فيه طوال ثلاثة آلاف عام .

١ - سومر :

لقد حل هنكر الخط المسمارى (١٨٥٠) ، وتوسع فيه أويرت ، ولورنسن ، فعجلا الأثريون حضارة سومر في جغرافيتها وسلالاتها وتاريخها جلاء دل على فضلها في وضع أسس النظم التجارية والمصرفية والموازين والمكاييل القانونية واعتماد العقود المكتوبة والأختام الشخصية في المعاملة ، وأثبت أنها كانت في تاريخ العالم أول من عرف المركبات ذات العجلات ، وقوم السنة بآئتي عشر شهراً ، فورث تقويمها عنها اليهود والفرس والمسلمون ، وسن قانوناً مدنياً مكتوباً ، وجمع المعارف في مكبات ضمت إحداها مجموعة من ثلاثين ألف (لوح)

وتأثر الآكديون بالحضارة السومرية ، وعدلوا فيها ، وامتازوا بفن النحت عليها ، ولكنهم لم يأخذوا بها أخذ البابليين الذين أسسوا عليها أسس حكومتهم الرصينة ومنشآتهم المعمارية وتراثهم الفكرى وتوسعهم التجارى . وقد فك جروتجنرد رموز الكتابة البابلية (١٨٠٢) ، فكشف عن أثر البابليين في تقدم الطب والرياضة والجغرافيا ، وعن إبداعهم علم الفلك ، وتدوينهم أقدم القوانين ، وهى مجموعة حمورابى - التى عثر عليها بين أنقاض مدينة السوس (١٩٠٢) ، وبلوغ حضارتهم المادية في عهده درجة لم يبلغها غيرها من مدن آسيا إلا بعد مئات السنين .

وخلفهم الآشوريون ، فاقتبسوا عنهم ، وتكون أديهم في جملة من آثارهم ما خلا الحوليات الملكية الآشورية ، وهى مصادر تاريخية ذات أهمية بالغة ، وقد جمع آشور بانيبال مكتبة من اثنين وعشرين ألف آجرة في الدين والأدب والسياسة والعلم فكانت أول مكتبة من

نوعها . ونما نحوهم الكلدانيون ، في حين كانت تلك الحضارة قد انتقلت إلى مارديس وميليطيس ، وأوفت على الغاية في كريت (١٦٠٠ - ١٤٠٠ ق . م .) ، فأضحت الحضارة الإيجية أمّ الثقافة اليونانية والهليستينية المشتقة منها ، وعنها أخذت رومة والعرب فأوربا .

٢ - مصر :

ولئن أحال الزمان معظم الحضارات الشرقية إلى أنقاض - لقد خلدت عليه حضارة مصر المسجل أروعها على آثارها في : الأهرام ، وأبي الهول ، والأقصر ، والكرنك ، وغيرها من قبل التاريخ ، والدولة القديمة (٢٧٠٠ - ٢٢٠٠ ق . م) ، والدولة الوسطى (٢١٠٠ - ١٧٨٨) ، والهكسوس (١٦٨٠ - ١٥٨٠) الذين أسسوا الأستين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، والإمبراطورية أو الدولة الحديثة (١٥٨٠ - ١٠٩٠) ، والليبيين (٩٤٥ - ٧٤٥) والنوبيين (٧١٢ - ٦١١) والآشوريين (٦٧١ - ٦٦١) .

فهل اقتصرت مصر على حضارة مادية في انتقال الفلاح من الفأس إلى المحراث ، واكتشاف مناجم النحاس ، وتشديد أول بناء بأدوات من الحجر (قبر الملك زوسر في القرن ٢٦ ق . م) ، وتنظيم الحكومة والبريد والتعداد ، أو في مخرسفها البحر الأحمر من شماله إلى جنوبه ، وإقامة إمبراطورية جمعت بين بلدان شاسعة من أفريقيا وآسيا ؟ إن فضل مصر على الحضارة الإنسانية أعم وأجزل وأنبيل : فهي أول من وضع التقويم الشمسي (٢٧٨١ ق . م) ، ويرديات عن الجراحة والطب الظاهري ، وقواعد الحساب على الأساس العشري ، ومبادئ الجبر وهندسة المسطحات والمجسمات مما لم تعرفه أوربا إلا بعد ثلاثة آلاف عام !

وأول من اكتشف القلم والحبر ، والورق الذي مازال يعرف باسمه المصري بـايروس على تحريف بسيط في اللغات الأوروبية ، وأبدع الأيجدية ، فاشتق الفينيقيون أبجديتهم منها ، وعدلوا فيها ، ونشروها في طوافهم بالعالم فأخذها الآراميون إلى العرب والفرس والهنود ، ونقلها اليونان إلى الرومان فأوربا ؛ حتى أمست أساً لكل الحروف التي تكتب بها آسيا وأوربا وأفريقيا وأمريكا .

أما الفكرة الدينية فقد سبقت مصر سائر الأمم إلى التوحيد ، وسن دستور للضمير الإنساني فرداً وجماعة ، وجعل الثواب والعقاب بعد الموت ، فارتفع الإنسان إلى مثل خلقية هي أنبل

ما وصل إليه في حياته .

وجاءت تعاليم بتاح حوتب في الحكمة (٢٨٠٠ ق . م) قبل كنفوشوس وبوذا وسقراط بألفين وثلثمائة عام ، وأسفار سنوحى ، وقصة البحار الفریق (الأسرة الثانية عشرة) أعرق القصص التاريخي ، ومسرحية أوزيريس التي تمثل حياته وموته في مصر ويعتد في جبل لبنان مثلاً فذاً لجميع الآلهة في غربي آسيا ، وأقدم ما عرف عن التمثيل الديني .

وقد اهتمدى علماء حملة نابليون على مصر (١٧٩٨) إلى هياكل الأقصر والكرنك ، وصنفوا كتاباً في وصف مصر (١٨٠٩ - ١٨١٣) ، ثم قرأ شمبوليون حجر رشيد (١٨٢٢) ، فحل رموز الكتابة الهيروغليفية ، وألف أجرومية ومعجماً لها (١٨٣٢) ، فوضع بها أساس علم الآثار المصرية ، ومهد السبيل للعلماء إلى التنقيب عن عالم عظيم مفقود ، ولما وقف بمعبد الكرنك - وارتفاع عمد بهوه في الجزء الأوسط منه ٦٩ قدماً يتسع تاج كل منها لمائة واقف فوقه - بهرته الحضارة المصرية فكتب :

وفي الكرنك تبدت لى عظمة الفراعنة . وما من شعب قديم أو حديث خلا قداماء المصريين - قد أخرج كل ما تصوره الناس في العهارة بمثل هذا السمو والروعة والضخامة ! ولما طرد الآشوريون من مصر شجع ملكها بساتيك (٦٦٣ - ٦٠٩) الفينيقين - وتعود صلهم بمصر إلى غزوههم وضرب الجزية عليهم وترعمهم حركة الخروج عليها أيام أخناتون ، واستمرار نزوحهم إليها وتفرقهم بين أرجائها ولاسيا في منف - واليونان على استيطان مصر للإفادة من نشاطهم وخبرتهم العظيمة ، وكان وجودهم فيها سبباً في رواج تجارتها وتوثيق عراها بدول البحر الأبيض المتوسط^(١)

ثم استعان الفرس بأسطول فينيقيا على فتح مصر والحبشة (٥٢٥) ، واثارت عليهم (٤٨٥) ، فأعادوا فتحها (٤٨٤) ، وانضمت إليهم مع فينيقيا في حملتهم على اليونان (٤٨٠) ، وشيد مهنتسوما جسراً فوق الدردنيل من ٦٧٤ سفينة عدَّ بين روائع القداماء الهنسية .

وما انفكت مصر مورداً يقصدها علماء فينيقيا واليونان ينهلون منها ويرسون في بلدانهم على قواعدها . ومن زارها في القرن السادس قبل الميلاد فيثاغورس من جزيرة ناموس ، الفيلسوف الرياضي ، وأبقراط (المولود في جزيرة كوس ٦٤٠) أشهر أطباء العصر القديم ، وطاليس (٦٤٠ - ٥٦٤) (المولود في جزيرة ميليطيس من أصل فينيقي ، وتعلم فيها وفي فينيقيا ، ثم عاد

(١) عمده عبد الرحيم مصطفي وعبد العزيز مبارك ، تاريخ مصر القديم ، ص ١٨٣ .

إلى اليونان ، فأرسي أسس العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والفلسفة الصوفية فيها ، فخلد مواطنوه اسمه على رأس حكائهم السبعة ، وسولون (٦٤٠ - ٥٥٨) أقدر مصلح ومشرع وأحد حكماء أثينة السبعة .

وعندما أنشأ اليونان في إيليا على شاطئ إيطاليا الجنوبية مدرستهم الفلسفية الشهيرة (في القرن الخامس قبل الميلاد) ، وازدهر المسرح والخطابة والطب في صقلية (٤٨٤) - لم تحجب مصر ، فاستمر العلماء يقدون إليها ويفيدون منها ويصنفون فيها من أمثال : هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٥) وكان شرق الأصل في أحد أبويه ، وقد نفي من بلاده ، فطاف بفينيقيا ومصر حيث أبحر في النيل حتى أسوان ، وصنف تاريخاً في وصف حياة مصر والشرق الأدنى واليونان .

وديمقريطس الأبدري (٤١٠) الذي غادر إيليا إلى مصر والحبشة وفينيقيا وبابل وفارس والهند مستريداً من العلم ، حتى قال عن نفسه : لم يفقني أحد قط ولا المصريون أنفسهم في رسم خطوط بحسب شروط معلومة

كما زار أفلاطون (٤٢٩ - ٣٤٧) تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو مصر وأعجب بها . وقضى أودكسوس (٤٠٨) فيها ستة عشر شهراً يدرس الفلك على كهنة عين شمس ، ثم أنشأ مدرسة في أثينة لتعليم العلوم الطبيعية والفلسفة ، وقد ناقش أستاذه أفلاطون فيها ، ثم وقف جهده على علم الفلك .

ولما فتح الإسكندر الشرق الأدنى (٣٣٣ - ٣٢٣) أرسل (ألواحاً) من بابل إلى بلاد اليونان ، فترجمها وتضلت من علمي الفلك وتقوم البلدان ، وشجع حكماء اليونان على استيطان الشرق الأدنى لتمكينه من الفتح بالثقافة اليونانية . وبعد وفاته تقاسم قواده إمبراطوريته في مقدونية وآسيا ومصر ، فأخذوا بالملكية الشرقية نظاماً مطلقاً وطراز بلاط أورثوفا من بعدهم الرومان فأوربا حتى الثورة الفرنسية ، وتحول اليونان عن عبادة آلهتهم الإغريقية البسيطة إلى عبادات شرقية زاخرة بالعواطف مثل : كيبلي الأم العظمى في آسيا الصغرى ، وميثرا الفارسي ، وإيزيس المصرية ، في حين ظلت جمهره الشرقيين تعبد آلهتها ، وتتكلم بلغاتها ، وتجري على تقالدها .

وكانت مصر - أصغر أجزاء تركة الإسكندر وأغناها - من نصيب أقدر قواده بطليموس (٣٠٥ - ٢٨٥) ، فعمل على ترقيتها زراعياً وتجارياً ، وبسط سلطانها على شمالي برقة وعلى فلسطين وفينيقيا حيناً ، وجعل الإسكندرية عاصمتها وقد ضمت خليطاً من اليونان والإيطاليين

والعرب والفينيقيين والفرس والإجاش ، وأنشأ فيها المتحف والمكتبة (٢٩٠) ، وخلقه ابنه بطليموس الثاني (٢٨٥ - ٢٤٦) ، فجدّد حفر الخليج القديم بين النيل وبين البحر الأحمر ، وابتنى قصر أنس الوجود في أسوان ، وأقام منارة الإسكندرية (٢٧٩) وتزوج أخته على سنة الفراعنة (٢٧٦) ، وأتم المكتبة ، وأضاف إليها مكتبة أصغر منها في معبد سرايس أربي عدد ملفاتها على ٥٣٢ ألفاً ، واستقدم إلى الإسكندرية مشاهير الفلاسفة والعلماء والشعراء ورجال الفن ، وأغدق عليهم ، فعاشوا فيها وعرفوا بها ، وأمر بترجمة التوراة من العبرية إلى اليونانية وهي الترجمة السبعينية ، وحمل مانيثون الكاهن المصري الأكبر (٢٨٠) على تصنيف حوليات مصر ، فجمع الفراعنة في أسر مالكة مازالت التقسيم المتبع حتى اليوم ، وأخرج الشاعر هجسياس القوريني من الإسكندرية وقد أدت فصاحته في تأييد نظرية الموت إلى انتحار الكثيرين .

واستولى بطليموس الثالث (٢٤٦ - ٢٢١) على سوريا ، وبنى معبداً في أدفو ، وأصلح التقوم المصري ، وأمر بأن تودع مكتبة الإسكندرية جميع الكتب ، ويعطى أصحابها صوراً منسوخة منها ، واستعار من أثينة مخطوطات كبار مؤلفيها لقاء ضمان مالي ، ثم احتفظ بأصولها وعوضها عنها نسخاً منها نازلاً عن الضمان .

وتعاقب البطالمة على مصر ، وكان آخرهم كليوباترة (٤٧ - ٣٠) التي استألت قيصر ، فأولدها قيصرون ، وانتحر أنطونيوس في سبيلها (٣١) ، ولما عجزت عن أوكتافيوس قتلت نفسها لثلاثي تكون زينة لمهرجانه !

وأضحت الإسكندرية في عهد أمناء مكتبها : زودوتوس (٢٨٠) وأريستوفانس (٢٥٧ - ١٨٠) وأريستارخوس (١٤٥) ، وبفضل أساتذة متحفها وإقبال الطلاب عليها - الوريثة الشرقية لأثينة ومنارة للثقافة الهليستينية - وهي مزيج من الثقافة اليونانية والحضارات السامية والإغريقية تميزت بالتوفيق بين المذاهب الصوفية والتجريد والتنوع - المنتشرة في مدارس قرطاجنة وبيروت وأنطاكية والرها وغيرها طوال أحقاب .

ولئن حل ققه اللغة ونقد النصوص فيها محل الابتكار - لم يناعها في العلوم منازع ، فنبغ فيها أقليدس (٣٠٦ - ٢٨٣) ركن علم الهندسة المكين صاحب علم الفلك وأصول الهندسة ، وأخذ عن تلاميذه أرشميدس السرقوسي الذي ولد وتوفي في صقلية (٢٨٧ - ٢١٢) رأس علماء الطبيعة الأقدمين ، وزاول الطب فيها هيروفيلوس المقدوني (٢٨٥) أكبر العلماء في تشريح العين والمخ ، وطفق أساتذة متحفها يتوسعون في تعاليم فيثاغورس وأفلاطون ، فينشرها

طلابهم في مدن حوض البحر الأبيض المتوسط .

وحل الرومان محل اليونان (٣٠ ق . م - ٢٩٥ م) ، وخلفهم البيزنطيون (٣٩٥ - ٦٤١) ، وأجلاهم المسلمون (٦٤١) وقد جعل قيصر مصر من أملاك الإمبراطور ، وكلف سوجنيس العالم الإسكندري تعديل التقويم المصرى ، وأضاف كاليغولا (٣٧ - ٤١) دين إيزيس إلى أديان رومة الرسمية ، وأنشأ هدریان (١١٧ - ١٣٨) مجمعاً ليناكس به متحف الإسكندرية ، ثم زاد في محتوياته عندما زارها (١٣٠) ، وكانت مركزاً لدراسة الطب بز مدارسه في مرسليليا وليون وسرقوسة وأثينة وأنطاكية ، فوجد عليه الطلاب من أنحاء الإمبراطورية وحسب الطيب شهرة تخرجه منه . وقد صنفت إحدى طبيباته متروودورا رسالة في أمراض الرحم عدت مرجعاً ، وألف أحد أطبائه ديوسقوريدس القليقيانى (٤٠ - ٩٠) كتاباً في العقاقير الطبية أفاد من نقله العرب في بغداد وقرطبة ، واعتمدت عليه أوروبا في عصر نهضتها ، وتعلم الطب فيها وفي قيليقيا وقبرص جالينوس (١٣٠ - ٢٠٠) وزاوله في رومة (١٦٤ - ١٦٨) وهو أعظم أطباء عصره ، وقد أربت مؤلفاته على ٥٠٠ سلم ، منها ١١٨ رسالة ضمنها جميع فروع الطب ، كما اشتهر في الإسكندرية : بطليموس نسبة إلى بطليمويس على شاطئ النيل أكبر علماء الفلك الأقدمين ، صاحب النظام الرياضى ، ويطلق العرب عليه المجسطى (١٤٠) والموجز في الجغرافيا (١٥٥) ، وصور الكواكب إلخ . وهيرون الإسكندري (٢٢٥) الذى ألف رسائل في الرياضيات والطبيعة وكتاباً في الخيل والهوائيات والمدايا ، وصاغ عدداً من القوانين لقياس الأبعاد ، واخترع آلة بخارية كانت آخر مخترعات ذلك العصر وأعظمها .

وطوف بلوتارك اليونانى (٤٦ - ١٢٦) في الشرق الأدنى ، ومن مصنفاته رسالة عن العبادات الرومانية والمصرية ، وكتاب العظماء ، واتخذ إيان اليونانى الإسكندري روما موطناً له ، وألف تاريخ رومة (١٦٠) وحاول فيلون الفيلسوف الإسكندري اليهودى (المولود عام ٢٠ ق . م) التوفيق بين فيثاغورس - الذى نشر فلسفته في الإسكندرية أحيطاس - وأفلاطون والتوراة ، فهد السبيل إلى طبع الفلسفة بالطابع اليهودى فالنصرانى فالإسلامى فالنصرانى ؛ إذ أبدع كليان (المتوفى ٢٢٠) فلسفة مسيحية جديدة من الأفلاطونية الحديثة .

وحذا حنوه تلميذه وخليفته أوريجين (١٨٥ - ٢٥٤) ، وزاد عليه مبالغته في تفسير التوراة التى أستعان بالعلماء على ترجمتها من العبرية إلى اليونانية ، وقد استدعته أم الإمبراطور ألكسندر سفيروس إلى رومة ؛ ليفسر للناس أصول النصرانية

ثم أخلت الفيثاغورية مكانها للأفلاطونية الحديثة ، ومن أمتها أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠) وهو قبطنى من أسبوط قضى فى مدرسة الإسكندرية عشر سنوات ، ثم طلب المزيد من العلم فى فارس وأتطاكية ، وأنشأ مدرسة فى رومة (٢٤٥) وأشهر مؤلفاته : التساعيات فى ستة مجلدات ، ينقسم كل منها تسع مجلدات ، وقد رتبها تلميذه يورفيرىوس الصورى ونشرها بعنوان : الإيادات : أى التساعيات .

ومن علماء الكنيسة المصرية - دارىوس الإسكندرى (المتوفى ٣٣٦) منكر الوهية المسيح (٣١٨) ، وأنطونيوس الكبير الناسك (٢٥١ - ٣٥٦) ، وباخوميوس (٢٩٢ - ٣٦٢) مؤسس الرهبانية ذات الأثر البالغ فى النصرانية الأوربية ومن أخذ عنها .

٣ - فينقيا :

وهاجر الفينيقيون من شاطئ بابل الشرقى (حوالى ٣٣٠٠ ق . م) إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط . وأنشوا من مصب نهر العاصى حتى الكرمل إمارات أشهرها : إرواد ، وطرطوس ، واللاذقية ، وطرابلس ، وجبيل ، وبيروت ، وصيدا ، وصور ، وعكا . وعرفت فينقيا من الغزاة : الفراعنة (على فترات بين ٢٩٠٠ و ١٣٠٠) والآشوريين (٧٧٤ - ٦٣٥) ، والكلدانيين (٥٨٦ - ٥٣٨) ، والفرس (٥٣٨ - ٣٣٢) ؛ فاستعانوا بأسطولها على فتح مصر والحبيشة (٥٢٥) ، ومكنهم من شواطئ آسيا الصغرى ، وفى حملتهم على اليونان (٤٨٠) ، ثم عرفت الإسكندر الأكبر وخلفاءه (٣٣٢) والرومان (١٨٩) والبيزنطيين (٣٩٥ م) حتى قضى عليهم الفتح الإسلامى (٦٣٥) ، ثم انضم المردة فى طورس إلى الموارنة فى جبل لبنان ، ولحقت بهم أقليات فى متعدد الجنسيات والشيع والمذاهب ، حتى أصبح لبنان بلد الأقليات الطائفية المتولفة .

غير أن الشاطئ اللبنانى يومئذ كان أضيق من أن يتسع لتاريخ الفينيقيين ، شأنه اليوم ، فانطلقت قوافلهم بصناعاتهم من الصباغة والحياكة والزجاج والسفن ويسلع أفريقيا والهند واليمن والصين إلى بلاد العرب والعراق والحبيشة انطلاق سفنهم فى البحار يكتشفون مسالكها بالنجم القطبى الذى أطلق عليه اليونان النجم الفينيقى - ويحتكرونها ، (٨٢٥ - ٦٥٠ ق . م) فبلغوا شواطئ بحر إيجه - حيث ذكرهم هوميروس فى إلياذته - والبحر الأسود ، وأقاموا عليها حاميات لا استخراج ما فى مناجمها حتى أجلاهم قدماء اليونان عنها ما خلا ثلاث جزر منيعة هى : ثيرة ، وميلوس ، وناموس .

عندئذ تحول الفينيقيون إلى إقامة إمبراطورية من إسبانيا وغربي صقلية وشمال أفريقيا : فبلغوا إسبانيا (١١٠٠ ق. م) وأنشوا فيها مدينة ترشيش - ومعناها بالفينيقية منجم - ومالقة - ومعناها مصنع صغير - وشادوا هيكلين عظيمين فيها (٨٠٠) وتم لهم مع القرطاجيين فتح إسبانيا (٥٠٠) .

وشيد الفينيقيون في ليبيا - وهو اسم لوالدة آجينور ملك فينيقيا - صبراتة ، ولبدة الكبرى ، وأويا (١٠٠٠) ، ثم توسعوا فيها ، وجعلوها طرابلس القديمة (٩٠٠) ، وأقاموا في تونس أونيكيا (١٠٠٠) وفي الجزائر مرفأ شرشال ، وفي جنوبي طنجة مصرفاً لتمويل تجارتهم .

واستولى الفينيقيون على غربي صقلية (٨٠٠) ثم على سردينيا ، وكورسيكا ، ومالطة ، وقبرص ؛ وأنشوا المستودعات والمصارف والمكاتب في مرسيلا ورومة وكولونيا وبريطانيا ومصر وأورشليم وتدمر ، فأثرت صور (٥٢٠) ثراء جعل الفضة تتكدس في أسواقها تكدس التراب ، والذهب كوحل الطرقات ! ورفع بيوتها طبقات أعلى من بيوت رومة على حد قول سترابو ، وحافظ - مع بسالة أهلها - على استقلالها حتى قضى عليها الإسكندر الأكبر .

٤ - قرطاجنة :

وشيدت ديدو أميرة صور مدينة قرطاجنة (٨١٣) في تونس ، فما وافى عام ٥٥٨ حتى ضارعت أمها صور ، فعدها اليونان من أجمل العواصم ، ووصف أرسطو دستورها بأنه أرق من سائر دساتير العالم في كثير من نواحيه ، ولخص قواعد زراعتها ماجو الكاتب القرطاجني في كتاب مشهور^(٢) ، ومد أسطولها - ٥٠٠ قطعة ذات خمسة صفوف من المجذفين - رقعتها من حدود برقة إلى الأطلسي ومكثها من ضم جزر الباليار حتى جزر المديرال إليها ، وإقبال حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي في وجه التجارة اليونانية ثم الرومانية حتى قيل : لا يقوى الرومان على غسل أيديهم فيه إلا بإذن قرطاجنة .

وكان اليونان قد لحقوا بالفينيقيين إلى صقلية (٧٣٥) ثم إلى إسبانيا ، فدمر القرطاجينيون أسطولهم فيها (٥٣٥) ، وطال نزاعهم معهم على صقلية في حروب (٤٨٠ - ٤٠٩ - ٣٩٧ - ٣٩٢ - ٣٨٣ - ٣٦٨) ، وانتصر الرومان لجيرانهم اليونان على القرطاجيين (٢٦٤) ، فبدأت الحروب البونية - أي الفينيقية بلغة الرومان - وهزمهم في أكبر معركة

عرفها التاريخ (٢٥٦) ، واضطروهم إلى طلب الصلح (٢٤١) .
 وثار الجنود المرتزقة على قرطاجنة (٢٤١ - ٢٣٨) وحاصروها ، فرجع هميلقار^(٣) برقة
 الحصار عنها ، وصالح رومه ، وقصد إسبانيا (٢٣٨) ، وتوفى فيها (٢٢٩) .
 وخلفه في معسكره هزدرود بعل زوج ابنته فشيّد بجوار مدينة الفضة - قرطاجنة الجديدة
 (٢٢٦) ، وعقد مع رومة معاهدة ، ثم خلفه هنيعل بن هميلقار برقه (٢٢١) ، وكان يجمع
 إلى تضعله من الثقافتين الفينيقية واليونانية عبقرية سلكته بين أشهر أبطال التاريخ ، فزحف من
 إسبانيا على إيطاليا مجتازاً نهر الأبرو (٢١٨) إلى نهر البو - وقد اخترقه المؤرخ يوليوس ؛
 ليسجل نقشاً خلفه هنيعل عند بروتيوم في تاريخه العام (١٤٨ ق . م) - وأطبق على فيالق
 الرومان عند نهر تيسينو وبحيرة تراسيمن (٢١٧) وكاناي (٢١٦) ، فأفنى معظمها وكبار
 قوادها وثمانين من أعضاء مجلس الشيوخ . وقد برهن هنيعل في نصره ذلك على براعة في
 القيادة لم يتفوق عليه فيها متفوق ؛ ووجه به الخطط العسكرية الفنية ووجه أخذها مدى
 ألفي عام ، وروعت الكارثة رومة ، فهم أبناءها بالفرار وخشيت أراملهن العقم ، وأباح
 مجلس الشيوخ التضحية بالناس ، ثم جيشت جيوشها ، فاستولت على قرطاجنة الجديدة
 (٢١٥) ، وسيرت سيبو الملقب بالأفريقي على أفريقيا (٢٠٥) ، فقهر هنيعل عند زاما
 (٢٠٢) ، وعقد صلحاً مع قرطاجنة ، فاخترت هنيعل حاكماً عاماً (١٩٦) . ولما دس
 عليه أنه يعد العدة لاستئناف القتال وطلبت رومة تسليمه - فرمها وهي تطارده حتى تجرع
 السم (١٨٤) .

ولم يمت بموت هنيعل حقد رومة على قرطاجنة فكان كاتو - أشهر زعمائها - يحنم كل
 خطاب له في مجلس الشيوخ بقوله : هذا إلى أنني أعتقد أن قرطاجنة ينبغي أن تدمر ! وقرر
 المجلس أن الفينيقين دخلاء على أفريقيا ، ثم وعدّها (١٥١) بتركها واستقلالها وسلامة
 أراضيها إن هي سلمت للقنصلين الرومانيين في صقلية ٣٠٠ من أبناء أشرافها . وبعد أن
 سلمتهم طلب منها جميع سفنها ومؤنّها ودخاثرها وإجلاء سكانها عنها لإحراقها ، فقاومت
 حصاره براً وبحراً طوال ثلاث سنوات . ورجع القائد سيبو إلى مجلس الشيوخ في أمر تدميرها
 بعد سقوطها ، فرد عليه : يجب أن تحرق وتحرق وتغشى بالملح وتصب اللعنات على كل من
 يحاول إقامة بناء في موضعها ، فأحرقها وظلت النار مشتعلة في أرجائها ١٧ يوماً (١٤٦) ،
 وضم أملاكها إلى رومة باسم الولاية الأفريقية^(٤) حتى عام ٤٣٩ م .

Flaubert, Salammbô.

(٣)

G. Boissier, L'Afrique romaine.

(٤)

ولم يعبأ أغسطس (٦٣ ق. م - ١٤ م) بلعنات مجلس الشيوخ ، فأعاد بناء قرطاجنة ، فنظم فرجيل (٧٠ - ١٩ ق. م) الإلياذة في وصف تشييدها الأول ونزول أهلها بإيطاليا ، ثم صنف الإمبراطور كلوديوس الأول (٤١ - ٥١) كتاباً في تاريخ قرطاجنة ، وما لبثت بعد قرن أن استعادت رخاها ، فأقامت الهياكل والتماثيل ، ورفضت بيوتها ست طبقات ، وشيدت قاعات المحاضرات ومدارس البيان والفلسفة والطب والقانون^(٥) . ولما اعتنقت أفريقيا الشمالية النصرانية وهبت لها أعظم المناضلين عنها ، ووضعت نصوص القديس اللاتيني وترجمة العهد القديم فيها ، وظل في شمالي أفريقيا بعد الفتح الإسلامي ٤٠ أسقفية ، ولم تقف رومة عند النهل من ثقافتها ، فعُلمها بغيرها ، وإنما رفضت سلالة أحد رعاياها إلى عرش أباطرتها .

سبتيموس سيفيروس (١٦٤ - ٢١١ م) ولد في لبدة الكبرى من أسرة فينيقية تتكلم بلغتها ، ودرس الآداب والفلسفة في أثينة ، وتزوج (١٨٧) جوليا دومنا بنت كاهن الغابال إليه حمص ، فأنجبت له كراكلا وجيتا . وعندما ارتقى العرش (١٩٣ - ٢١١) سار بالإمبراطورية على الأساليب الشرقية ، وملاً الأماكن الشاغرة في مجلس الشيوخ بالمشركين ، وقد سبق لكلوديوس أن اتخذ وزراءه من الفينيقين : بعل بالاس للمالية ، ونرميس للخارجية ، وكالستوس فينفيان للدولة ، كما اختار نيرون من بعد أبا أفروديت رئيساً لمجلس الشيوخ^(٦) وأنشأ كتاب جديدة للحرس الإمبراطوري ولى عليها قائدين أحدهما بابنيان الفقيه الذي استدعاه من بيروت ، واتخذ زميله أوليان كبير مستشاريه ، ووهب للبدلة الكبرى مسقط رأسه - باسلفاً وحاماً عاماً - مازالت آثاره الرائعة قائمة حتى اليوم قيام القصر الذي بناه على تل البلاتين في رومة ، وإيوان فستا وهيكلها اللذين شيدهما جوليا دومنا ، واستحدثت إدارات جديدة ، وأعاد تنظيم ما بين النهرين ، وقضى ثمانية عشر عاماً في حروب سريعة مكنته من قتل نيجر بالقرب من أنطاكية (١٩٤) وتدمير بيزنطية (١٩٦) ، وضم بلدان واسعة ، والانتصار على الأسكتلنديين ، ثم انسحب إلى بريطانيا حيث توفي في يورك الحالية (٢١١) .

وأراد كراكلا (٢١١ - ٢١٧) وكان قد شارك أباه في الحكم (١٩٨) - أن يفرد بالسلطان من دون أخيه جيتا (٢٠٩) ، فأنفذ إليه من قتله . (٢١٢) ، وقضى على أتباعه في طليعتهم بابنيان ، إلا أنه منح الشرقيين امتيازات وافرة وحقوق الرعوية لسائر شعوب الإمبراطورية ، وأضاف إلى معالم رومه قوس سبتيموس وضمماً لزوج إيزيس وتماثيل

(٥) وقد كشف عن آثارها ديلتر (١٨٩٠) Delatre وأنشأ لها متحفاً باسم قرطاجنة .

M. Grant, Le Monde de Rome, p. 119.

(٦)

لهنيعل - وقد طلب من مجلس الشيوخ إدراج اسمه بين الآلهة - وحمامات عامة بلغت مساحة بنائها الرئيسي ٢٧٠ ألف قدم مربعة ، وأنشأ فيلقاً من ١٦ ألف جندي أطلق عليه اسم الإسكندر ، وصد الألمان والقوط (٢١٤) ، وضم أرمينيا (٢١٦) ، ووفق يشارك جنوده - وقد أسرف في رفع مرتباتهم فهدد بالإفلاس - في طعامهم وشرابهم وكلدحهم إلى أن اغتاله رئيس الحرس مكرينوس (٢١٧) ، ونادى بنفسه إمبراطوراً ، وطلب من مجلس الشيوخ اتخاذ كرا كلا إلهاً ، ونفى أمه دومنا إلى أنطاكية حيث أضربت عن الطعام حتى ماتت . وعادت شقيقتها الصغرى جوليا بائسة إلى حمص ، فألفت حفديها : فاريوس أفيتومس بن بنتها جوليا سواتيمياس ، وألكسيانوس بن جوليا ماماتيا ؛ وأشاعت جوليا أن فاريوس هو الابن الطبيعي لكرا كلا ، وحاربت به مكرينوس وانتصرت عليه . فدخل فاريوس ، وقد تلقب بلقب الغالبوس رومة (٢١٨ - ٢٢٢) ، فترك لجدته حكماً ، وراح يستمتع بالإمبراطورية على الطريقة الشرقية رافعاً إله حمص فوق الآلهة مكثرًا من حفلات الموسيقى والغناء مولماً ولائم يخلط فيها قطع الذهب بالبازلا والعقيق بالعدس واللؤلؤ بالأرز ، حتى إذا ضاقت جدته بعثه حملته على أن يتبنى قريبه ألكسيانوس ، ويجعله قيصرًا وخليفة ، ثم ائتمرت به فاغتاله الحرم ، وألقوه في نهر التبير ، ونادوا بألكسيانوس ، ولم يتجاوز الرابعة عشرة - هو الآخر - إمبراطوراً باسم ألكسندر سفيروس .

وكان ألكسندر سفيروس (٢٢٢ - ٢٣٥) المولود في عرقة من بلاد عكار بلبنان (٢٠٨) بهي الطلعة كأسلافه مثقفاً بالثقافة اليونانية واللاتينية مقتصدًا في طعامه وشرابه وكسائه ، يستعين بأمه وأستاذه أولبيان في سياسته ، ويعامل أعضاء مجلس الشيوخ معاملة الأنداد ، ويضع في معبده صوراً لجميع الآلهة والرسول بمن فيهم - إبراهيم والمسيح فاستدعت أمه أوريجين أشهر علماء الإسكندرية ليفسر للناس أصول النصرانية ، وقد حرّم الدعارة ، وخفض الضرائب ، وأنقص الفائدة ، وأقرض الفقراء ، وشاد المنشآت العامة في جميع أنحاء الإمبراطورية ، فعمها الرخاء ، إلا أن الفرس والألمان طمعوا فيه ، فقاتل أردشير وانتصر عليه ، وانطلق للقاء قبائل الألمان والمركبان في بلاد غاليا الشرقية ، ووفق يقاوضها للإبقاء على السلم ، فعدّ جنوده مفاوضته ضعفاً منه واستسلاماً لأمه ، فاقترحوا عليه خيمته ، وقتلوه هو وأمّه وأصدقائه (٢٣٥) ! وبموته عني على حكومة رومة الدستورية ، وبدأت فيها الفوضى العسكرية .

لم يقتصر الفينيقيون على ما تقدم : فقد اشتقوا من الأبجدية المصرية أبجدية - ترقى إلى

القرن الرابع عشر قبل الميلاد كُشف عنها شيفر الفرنسي في أوغاريت وهو اسم القصر الملكي في رأس شمرة قرب اللاذقية (١٩٣٢ - ٦١) ونشروها حيث حلوا نشرهم في أوروبا حضارة الشرق كالمقاييس والموازين وبناء السفن وعلم الفلك . وعنه اقتبس العبرانيون كتاباتهم المقدسة : كسفر الأمثال ، والمزامير ، ونشيد الإنشاد وغيرها . واشتقت اللغات الغربية اسم الكتاب المقدس من بيلوس .

وكان القرطاجنيون أول من كشف عن المحيط الأطلسي ، فقطع هنون حاكم قرطاجنة (٤٩٠) إزاء شاطئ أفريقيا الغربي - مسافة ٢٦٠٠ ميل قبل البرتغاليين بألبي سنة ، وانطلق هيميلكون في بعثة كشف إلى ساحل أوروبا الغربي ، فبلغ بريطانيا وجزر الكناري (المديرا) وفي ذلك يقول سارتون : « إن الملاحين الفينيقيين وخلفاءهم القرطاجنيين قد اضطلعوا بأعمال . . أكبر خطراً من تأملات الإغريق في اللانهاية أوفى اللامنطقية الحسابية^(٧) »

ولكن تلك التأملات لم يستقل بها اليونان ؛ فقد أسهم الفينيقيون في إنشاء الحضارة الكريتية ، وتأسيس المدارس الأوربية وطبعها بالطابع الشرقى ، وتعاونوا هم وزملائهم المصريون والفلسطينيون والسوريون على إبداع الثقافة الهلنستية ، واشترك مشرعو مدرسة بيروت في صياغة القانون الروماني الذي عد أروع ما قدمته رومة للأجيال ، فاستندت إليه الثورة الفرنسية في وضع دستورها . وانتقلت النصرانية من فلسطين إلى رومة فأوروبا ، فاهتدت بها إلى التوحيد بعد وثنية طويلة ، وبلغ ثمانية شرقيين كرسى البابوية^(٨) . وقد تميزت ثقافة الفينيقيين وخلفائهم وأحلافهم بالإبداع والتنوع والاستمرار ، وخلقها علماء وأبطالاً وقديسين من مشاهيرهم :

زينون الرواقى (٣٣٦ - ٢٦٤ ق. م) من أصل فينيقي ولد في قبرص ، وقصد أثينة (٣١٤) ، وأنشأ رواقاً فيها (٣٠١) ، ونشر جمهوريته (٣٠٠) ، فأعجبت الجمعية الأثينية به ، وسلمته مفاتيح الأسوار وأهدت له تاجاً من الذهب . . وقررت بناء قبر له في حي الرمكس ، ولما توفى كتب على قبره : « لن يضررك منبتك في فينيقيا ضيراً ، ألم يأت قدموس - وتعزو اليونان نشأة كثير من مدنها إلى قدموس^(٩) وأمثاله ، وكان قدموس أول من استخراج

(٧) سارتون ، تاريخ العلم ، ج٢ ، ص١٥٦ .

(٨) L. Brehier, Les origines du crucifix dans l'art religieux.

(٩) وللأستاذ سعيد عقل ملحمة رائعة بعنوان : قدموس .

النحاس من مالطه ، وبنى طيبة ، وصنف كتاباً في تاريخ ميليطيس (٥٥٠) - اليونان بكتبتها
وفن كتابتها ؟ » .

وبنى زينون مذهبه الرواقى على كثير من العناصر الآسيوية ولا سما السامية كالتجريد ووحدة
الوجود والجبرية ، فانتصر بها الشرق على الثقافة اليونانية ، وذاع على يد مرديه فى الشرق
والغرب ذيوماً كبيراً ، وعندما أنشأ الإمبراطور ماركوس أورليوس كراسى للفلسفة فى أثينة
قصرها على أربع : الأفلاطونية ، والأرسطاطلية ، والرواقية ، والأبيقورية ؛ وأخذ بالرواقية
معظم فلاسفة الرومان ، فأصبحت ملهمة سيبو ، وأمنية شيشرون ، ورائعة سنكا ؛ وخلقت
من أباطرتهم أبطالاً من أمثال : كاتو الأصغر ، وتراجان ، وماركوس أورليوس ؛ وتبلورت فى
ضمير رومة ، فوضعت على هديها قوانينها الشهيرة ، ثم مهدت للمسيحية ، فأضحت ديناً
أكثر منها فلسفة .

بروبوس البيرونى (القرن الأول للميلاد) تخصص فى الأدب ، وقصد رومة حيث نشر
مصنفات فرجيل وهوراس وغيرهما نشرأً علمياً ، فعد من أكبر اللغويين اللاتين وفى طليعة
النقاد .

فيلو الجبيلى (٦١ - ١٤١ م) نحوى ومؤرخ ومترجم ، صاحب التصانيف الوافرة ومن
أمهاتها : الديانة الفينيقية ، وترجمة حوليات سانحو نياطون البيرونى من الفينيقية إلى اليونانية ،
وقد رد إليه النظرية الذرية ، ولكن سبارتون يرجح عليه وعلى موخوس الصيداوى لوقيوس
المالطى .

مارينوس الصورى (القرن الثانى للميلاد) أول من وضع الخرائط الجغرافية على أسس
رياضية ، فعد مؤسساً للجغرافية العلمية ، وقد اعترف بطليموس ببناء جميع مؤلفاته على
أصولها .

أدريانوس الصورى (القرن الثانى للميلاد) فيلسوف تبوأ كرسى البلاغة فى أثينة ، وكان
يذهب إلى الندوة فى عربة عدة جياها من الفضة ، وعليه أثواب تتلأأً بالجواهر ، ويستهل
محاضراته بتلك العبارة المأثورة عنه : « ها قد عادت الآداب مرة أخرى من فينيقيا » وقد
استمع إليه هديران ، وماركوس أورليوس ، وخلعا عليه ووهبا له الذهب والبيوت والعبيد ،
ولما قصد رومة عين أستاذاً للبلاغة فيها ، وبلغت روعة محاضراته مبلغاً أرجأ من أجله الشيوخ
اجتماعات مجلسهم ، وصرف الناس عن دور التمثيل إليها مع أنه كان يلقيها باليونانية .

باينيان (١٧٥ - ٢١٢) تعلم القانون ، وعلمه فى مدرسة الحقوق ببيروت ، وجعله

سبتيوس سفيروس أحد قائدي الحرس الإمبراطوري ، وطلب منه كراكلا تبرير اغتيال أخيه ولما رفض بقوله : إن اغتيال الإخوة أسهل من تبريره - أمر بقطع رأسه ولما يتجاوز السابعة والثلاثين . وقد جمع باينيان القوانين الرومانية وشرحها وصنف فيها كتابين : الأسئلة ، والأجوبة ، امتازا بالترعة الإنسانية والعدالة الاجتماعية . وصاغ مع زميله أوليان الفقه الروماني - وكان سلفيوس جوليانوس الروماني القرطاجني من عباقرة المشرعين قد وضع مجموعة في القوانين المدنية بعنوان خلاصة - صياغة منطقية منسقة ، فبلغا به الذروة ، وقد انطوت مجموعة قوانين جوستينيان (٥٢٣) على ٥٩١ فقرة من وضع باينيان .

أوليان الصوري (١٧٠ - ٢٢٨) تخرج في القانون من مدرسة الحقوق في بيروت ، وخلف منافسه باينيان فيها . ثم استدعيَ إلى رومة لمعاونته حتى جرده من وظيفته الغالبوس خليفة كراكلا (٢١٨) ، وأعادته ألكسندر سفيروس مستشاراً إمبراطورياً ، (٢٢٢) ، وقتله رجال الحرس في حضرة الإمبراطور وأمه (٢٢٨) ، وقد واصل أوليان جهود باينيان في فقه القانون ، ووقف نشاطه على الدفاع عن العبيد ومساواة المرأة بالرجل ، وخلف مكتبة اشتهرت بمحفوظاتها التاريخية وعدة تصانيف ضم ثلث فتلويه فيها موجز جوستينيان ، و ٢٥٠٠ فقرة منها مجموعة تيودوسيوس (٤٣٨) .

انتباتر الصيداوي (القرن الثالث للميلاد) ، وأصله من صور تلمذ على أديانوس ، واختاره سبتيوس سفيروس أميناً له ومؤدباً لولديه : كراكلا وجيتا ، فلما اغتال كراكلا أخاه جيتا لامه في رسالة بليغة ، ورجع إلى صيدا حيث توفي من الجوع بإرادته .
بورفيربوس الصوري (٢٣٣ - ٣٠٥) تعلم في صور وأثينة ورومة والإسكندرية حيث أخذ الأفلاطونية الحديثة عن أفلوطين ثم علمها في رومة حتى وفاته . وقد نشر لأستاذه كتاب التساميات ، وصنف هو في الفلسفة والنحو والبلاغة والرياضيات والفلك وعلم النفس والموسيقى والنبات ، وقد سلم من إحراق معظم كتبه (٤٤٨) كتابه الإيساغوجي ، فحل إلى جانب مؤلفات أرسطو في البيان والمنطق والشعر ، ونقل إلى العربية في بغداد .

٥ - في شمال أفريقيا :

اشتهرت قورينا وهي أكبر مدن برقة - بمركزها الثقافي ، وقد ولد فيها أرسطوبوس ، وتيودورس الرياضي ، وتيودورس الفيلسوف (القرن الخامس ق . م) ثم الشاعر كليماخوس (المتوفى ٢٦٠ ق . م) أحد الشعراء الغنائيين التسعة في العالم يوم ذاك

بييلوس ترتيوس أفر (١٨٤ - ١٥٩ ق . م) ولد في قرطاجنة من أصل فينيقي ، واسترعى بمواهبه انتباه سيده الروماني فعلمه وأعتقه ، فانصرف إلى تأليف المسرحيات : أندريا ، وهسيرا ، والمعذب نفسه ، والخصى ، وفورميو ، والأخوة ؛ وقد امتازت جميعها بحبكة متقنة ، ودراسة للشخصيات دقيقة ، وحوار ممتع ، وطلاوة لغة ، وطابع إنساني ؛ مما جعل بعضها يمثل مرتين في اليوم الواحد . وأصبح غيرها نموذجاً لما جاء بعدها كشخصية فيغارو ، وتناقلت الأجيال في أنحاء العالم أبحاثاً منها أمثالا : كالحظ يوثي الشجعان ؛ ومن ثم كانت تلك العبرات إلخ . وقد أثنى قيصر على أسلوبه العفيف ، ووصفه شيشرون بأرق شعراء الجمهورية ، وعده النقاد الصائغ من اللغة اللاتينية أداة أدبية استطاع شيشرون أن ينشئ بها نثره وفرجيل شعره .

أبوليوس (المولود ١٢٤ م) تعلم في مدورا وقرطاجنة وأثينة . وتنقل من دين إلى دين ، وتعاطى الطب والمحاماة بين مدورا وقرطاجنة ، وألقى محاضرات في الفلسفة ، ومن خير مصنفاته فيها : الحمار الذهبي ؛ ولما توفي رفعت له مدينته نصباً نقشته عليه باللاتينية : الفيلسوف الأفلاطوني .

ترتوليان (١٦٠ - ٢٤٠) القرطاجني ذو عبقرية فذة ، وصاحب جدل في الدفاع عن النصرانية من الطراز الأول ، وقد جعل الفلسفة المسيحية اللاتينية ديناً أخلاقياً قانونياً علمياً ، وله فيها كتاب في النفس حاول أن يطبق على الدين أصول الرواقية ، وهو واضع المبدأ القائل : لا طاعة لقانون يعتقد الإنسان ظالماً ؛ وقد جعل مع منوسيوس الآداب المسيحية في الغرب لاتينية .

سيريان (٢١٠ - ٢٥٨) من آباء الكنيسة الأعلام ، رفع أسقفية قرطاجنة إلى درجة رومة (٢٥٢) ، ودعا إلى اللين في الدين ، وصنف كتاباً بعنوان : الكنيسة الكاثوليكية ، وقد استشهد على يد الإمبراطور فالريان .

أوغسطين (٣٥٤ - ٤٣٠) من خريجي مدرسة قرطاجنة أسقف هيون وأشهر أبحار الكنيسة اللاتينية وقد خلف - بلغتها إلى إتقانه اليونانية ومعرفته الفينيقية - من التأليف ما ترجم إلى لغات عديدة وأبعدها صيتاً : مدينة الله ، والاعترافات ، ورسالة في النعمة ؛ فوضع فيها أساس علم اللاهوت في الغرب ، وعمل على التوفيق بين الأفلاطونية والنصرانية أو العقل والإيمان ، واعد ينبوع التصوف الذي نهل منه العالم المسيحي ، وتأثرت به الصوفية العالمية ، وظلت الحياة الفكرية متأثرة به نحو ألف عام .

٦ - سوريا :

وخرج الآراميون وهم جماعات سامية من صحراء سوريا (القرن الرابع عشر ق. م) ، وأصبحوا تجاراً دوليين (من القرن العاشر إلى الرابع) وجعلوا الآرامية لغة غربي آسيا حتى كتبت بها الآداب اليهودية والنصرانية .

وتوالى على سوريا الفراعنة خلا مدينتين (١٥٨٠ - ١٣٧٥) والحثيون والأموريون (١٣٧٥ - ١٣٥٠) والحثيون (١٣٥٠ - ١٢٠٠) ورمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٧) ، واستقلت بآراميتها (١٠٠٠ - ٧٠٠) ، وتبعث الآشوريين (٧٣٢ - ٥٣٨) والفرس (٥٣٨ - ٣٣٢) وورثها السلوقيون عن الإسكندر ، وانتزع بعضها منهم البطلمة (٣٢٣ - ٦٤) ، وفتحها الرومان (٦٤ ق. م - ٩٣٥ م) ، وحل محلهم البيزنطيون (٣٩٥ - ٦٣٨) ، فأجلاهم العرب (٦٣٨) .

وفي عهد الإسكندر وخلفائه نزع حكماء من اليونان إلى الشرق الأدنى ، فأنشأ بعضهم مدرسة فلسفية في حرّان^(١٠) ترامت شهرتها إلى أفريقيا وإيطاليا على حد قول السمعاني . وشيد سلوقوس الأول أنطاكية (٣٠٠ ق. م) وجعلها عاصمة مملكه ، ثم أصبحت ثلاثة مدن الإمبراطورية الرومانية بعد رومة والإسكندرية . ولطالما شكى الشاعر الروماني الهجاء جوفنال (٦٠ - ١٤٠) تدفق سيل المشرقيين على رومة بقوله : لقد أخذ نهر العاصي يصب منذ زمن طويل في نهر التير^(١١) ولكن الرومان أفادوا من ذلك التدفق فانتفع تراجان بعبقرية أبلودورس ، وهو يوناني من أهل دمشق ، فخطط له الطرق والقنوات وجسر نهر الدانوب ، وأنشأ في رومة سوقاً جديدة أحاطها بمبان فخمة على مدخلها قوس تراجان (المتوفى ١١٧) . لوسيانوس (المولود عام ١٢٥ م) الفيلسوف وقد زاول المحاماة في أنطاكية ، وطوف - وهو يفاخر بأصله السوري ولغته السريانية - في آسيا الصغرى واليونان وإيطاليا وغاليا حيث تبوأ كرسى الفلسفة ، واستقر مدة في أثينة (١٦٥) ، وأنقذه ماركوس أورليوس من الفقر بتعيينه في وظيفة بمصر ، وقد بلغت مصنفاته ٧٦ مصنفاً أشهرها : محاورات الحظيات ، والتحقيق مع زيوس ، وزيومس تراغويدوس ومحاورات الأموات التي قلده فيها دى فونتيل واللورد ليلتون ، ثم المحدثون ، ومنهج كتابة التاريخ ، وآلهة سوريا ، وقصة محجة ، ومنها

J.-B. Chabot, J. A. 15 Juin, 1896.

(١٠)

Juvenal, Satires.

(١١)

تسلسل قصص السندباد البحري ، ورحلات كوليجر وما أعقبها .
وعلم في أنطاكية لبيبانوس (٣١٤ - ٣٩٣) ، وأنشأ مدرسة للبلاغة في القسطنطينية ،
ثم رجع إلى أنطاكية فخرج عليه - برغم عداوته للمسيحيين - يوحنا الذهبي الفم ،
وباسيليوس النير أسقف قيصرية الذي أنشأ فيها داراً في عدة مبان للمرضى والمرضات
والأطباء والمختبرات والمدارس .

وأسس سلوقوس نيكاتور (٣٥٥ - ٢٨٠) مدينة على العاصي ، وأطلق عليها اسم زوجه
أفاميا ، وهي اليوم قلعة المضيق ، فحمل اسمها فلاسفة من أمثال :
بوسيدونيوس الأفامي (١٣٥ - ٥١ م) الذي تعلم في أثينة ، وأنشأ المدرسة الرواقية في
رودس ، واجتذب إلى محاضراته يومي وشيرون ، وقد عُرِف أسلوبه الرائع بالأسلوب
الشرقي ، وعد أكبر عقل مبدع في التاريخ القديم ، وصنف في الفلسفة والتاريخ والعلوم
الطبيعية ، ومن أشهر مصنفاته : تمة تاريخ يوليوس الذي أضحي مرجعاً للمؤرخين - ليني ،
وسترابو ، وبلوتارك - ورسالة عن المحيط . وقد نسب بوسيدونيوس النظرية الذرية إلى العالم
الفينيقي موخوس الصيداوي .

نومينيوس الأفامي (القرن الثاني للميلاد) مؤسس الأفلاطونية الحديثة ، وقد اتهم النقاد
أفلوطين ببناء آرائه على تعاليم نومينيوس .

أرخيجينس الأفامي (القرن الثاني للميلاد) زاول الطب في رومة على عهد تراجان ، وقد
علق على رسالته في النبض جالينوس .

إميلوس (القرن الثالث للميلاد) من تلاميذ بلوتينوس والمعجبين بنومينيوس ، وقد أسس
في أفاميا - برعاية زنوبيا ملكة تدمر - مركزاً للأفلاطونية الحديثة .

وامترجت الثقافة الهليستينية بالنصرانية ، وذاعت في الشرق الأدنى ، فتأثر هيلودورس
الحمصي (القرن الثاني للميلاد) بالتعاليم المسيحية ، وصنف قصة الأتيويكا التي نسج على
منوالها : سرفتس ، وكورنوا ، ومدام سكوديري .

واشتهرت الرها (في القرنين الثالث والخامس للميلاد) بمعاهدها العلمية ، وأكبر أساتذتها
أفرام السرياني (٣٦٠ - ٣٧٧) الذي ابني فيها مستشفى (٣٧٥) وربولا الأسقف ، وقد
تركها العرب وشأنها عند فتحها (٦٣٩) .